

علم الفلك: تفسير آيات القرآن في الكون د. أسامة عبدالله خياط



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

إن للعلوم الكونية — كما هو الشأن تماماً في شقيقاتها من علوم الدين — دوراً فاعلاً ومؤثراً في خدمة كتاب الله تعالى وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم، والإسفار عن وجه جلالهما وجمالهما وبيان هديهما وشرائعهما كما أمر الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ذلك أن العلم الصحيح في هذا الدين رديف الوحي في تثبيت الهدى، تحقيقاً لوعده الرب جل وعلا بجعل آياته في الآفاق والأنفس عاملاً من عوامل بيان الحق، وترسيخ اليقين: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَ مَا يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (سورة فصلت: 53). وإن من أهم هذه العلوم الخادمة للكتاب والسنة: علم (الفلك) أو علم (الهيئة) كما كان يسميه الأقدمون، مما هو معلوم مشهور في تراثنا العلمي الإسلامي الغابر.

الفلك ومفهومه:



ويراد بعلم الفلك Astronomy ذلك العلم الذي

(يدرس الكون بما فيه من أجرام سماوية وظواهر كونية) (1).

وهذا المصطلح يقصد به عند أسلافنا القدماء: الجانب العلمي المرتكز أساساً على

(الأرصاء) و (الملاحظات)؛ فهو إذن مشابه - بصفة قوية ظاهرة - علم الفلك في زماننا الحاضر. مع ملاحظة أن علم الفلك المعاصر أدق وأوضح من علم الهيئة القديم.

مادة هذا العلم:

المادة الأساسية لعلم الفلك: هي هذه السماء وأجرامها المختلفة، وكذلك: الظواهر الكونية الأخرى. فهي إذن مادة علمية محضة تقوم في الأساس على:

(الأرصاء الفلكية) و (الملاحظات التي يلاحظها العلماء الفلكيون) إما بالعين المجردة، أو بمعاونة الأجهزة العلمية المعروفة. ولما يقف اهتمام علماء الفلك عند مجرد الرصد لهذه الأجسام بل يتعدى ذلك إلى محاولة الإجابة على أسئلة من مثل: مم تتكون النجوم؟ وكيف ينتج ضوءها. ولذلك يعد معظم هؤلاء العلماء (فيزيائيين فلكيين).

فروعها:

لقد تفرع عن هذا العلم الرئيس - في العصر الحاضر - حشد من الفروع العلمية المتخصصة تخصصاً دقيقاً في فرع أو نوع من فروع وأنواع هذا العلم. وذلك مثل:

(1) علم الفيزياء الفلكية: Astrophysics وهو العلم المختص بدراسة الظواهر والصفات الفيزيائية لأجرام السماء.

(2) علم القياسات الفلكية: Astrometry وهو مختص بقياسات مواقع النجوم والأجرام في قبة السماء.

(3) علم الفلك الراديوي وهو مختص بدراسة

(الأمواج الراديوية) المنبعثة من الأجرام السماوية.

(4) علم الفلك بالأشعة تحت الحمراء

(5) علم الفلك بالأشعة فوق البنفسجية وبأشعة

(جاما) وبالأشعة السينية

(6) علم الكونيات Cosmology وهو مختص بدراسة والبحث في أصل الكون، وبنية، وعناصره.

(7) علم الكوسموجوني Cosmogony، وهو علم تاريخ الفلك ويشمل التصورات الفلكية عند الأمم ويمكن اعتباره علم الهيئة القديم.

وهذان العلمان الأخيران وإن كانا علمين مستقلين، إلا أنه يمكن إضافتهما إلى فروع علم الفلك لاشتراكهما مع علم الفلك في مادته التي هي السماء وأجرامها المختلفة كما سلف.

كما أن من الجدير التنبيه إليه أن معظم هذه الفروع العلمية التي تفرعت عن هذا العلم إنما اثبتت عنه خلال هذا القرن الذي نعيش أيامه، ولم تكن معروفة من قبل.

المتنجيم:

كثيراً ما يقترن بعلم الفلك ويصاحبه ويخالطه اصطلاح آخر هو

(المتنجيم) Astrology .

وقد كان له عند الأقدمين من أسلافنا تسمية محددة مشهورة مذكورة، هي:

(علم الأحكام) أو (علم أحكام النجوم) أو (علم النجوم الأحكامي).

والأول من هذه التسميات هو أكثرها وأشهرها استعمالاً. ووصفه بالعلم Science خطأ محض، كما سيأتي بيانه قريباً.

والمتنجيم - في لغة العرب - مشتق من النجوم والنظر فيها، ويعبر بالنجم عن

(الوقت المضروب) (2). ومنه (المنجم)، (المتنجم) و (النجم) وهو (من ينظر فيها - أي في النجوم - بحسب مواقيتها وسيرها في طلوعها وغروبها) (3).

وقولهم: (نظر في النجوم: فكر في أمر ينظر كيف يدبره) (4).

والمتنجيم باعتباره مصطلحاً هو: (التطلع إلى معرفة الغيب من خلال النظر في النجوم) (5).

ويعرفه صاحب (كشف الظنون) بأنه (الاستدلال بالتشكيلات الفلكية من أوضاعها وأوضاع الكواكب - المقابلة، والمقارنة، والتسديس، والتربيع) (6) - على الحوادث الواقعة في عالم الكون والفساد في أحوال الجو والمعادن والنباتات والحيوان) (7).

وخلاصة ما يمكن قوله في هذا المقام أن كل ما يبحث فيه هذا (العلم)؟! لا يعد في الحقيقة علماً بالمعنى الاصطلاحي المعروف للعلم، بل هو حديث خرافة، ولا صلة له بالعلم من قريب ولما بعيد. وهي أي: (الخرافة) - في لغة العرب - مشتقة من

(المخرف) وهو: (فساد العقل من الكبير) (8) .

وتعريفها علمياً: (اعتقاد أو فكرة لا تتفق مع الواقع الموضوعي بل تتعارض معه) (9) .

ولذا جاء رفض هذا المدين - كتاباً وسنة - لهذا الموضع من الفروع المناظرة إلى السماء بقصد الربط بينها وبين ما يحدث على الأرض من وقائع وأحداث.

فأوضح الكتاب العزيز في بيان محكم، وتبيين دقيق، وإيضاح جلي أن الغيب لا يعلمه إلا الله: (قُلْ لَا يَعْزِمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل: 65).

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل: 77) .
وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْزِمُهَا إِلَّا هُوَ (الأنعام: 59) .

وأمر سبحانه نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يعلن على الملأ أنه لا يعلم الغيب: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوْءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (المعارج: 188) .

وجاء في صحيح السنة الشريفة التحذير الشديد من المتردي في وهدة الخرافة في بيان نبوي رضيع. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد) (10) .

وفي هذا تصريح بأن التنجيم من السحر ؛ والله تعالى يقول: (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ اتَّيَ طَه: 69) .
وفي صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلوات الله وسلامه عليه قال: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) (11)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) (12) .

والمعروف كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: (اسم للكهنة والمنجم والرمال ونحوهم كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف.. والمنجم يدخل في اسم العراف) (13) .

ويقول رحمه الله: (فقد تبين: تحريم الأخذ بأحكام النجوم علماً وعملاً من جهة الشرع، وقد بينا من جهة العقل أن ذلك أيضاً

1- التأكيد على (المسماء) و (المكون) بما يفوق التركيز على (الإنسان)، فمن ذلك قوله سبحانه: (أَنْ تُمْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمِ الْمَسْمَأَ بْنَ إِدْرِاعَ سَمَكَةً فَسَ وَالَهُ* وَأَغْطَشَ لِي لَهَا وَأَخْرَجَ ضَحْالَهُ (النازعات 27- 29. وقوله عز اسمه: لَخَلْقُ الْمَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (غافر: 57 والآي

2- ورود (مفردات فلكية) كثيرة في القرآن. فلفظ (السماء) و (السموات) ورد في القرآن 310 مرة. ولفظ (الشمس) 33 مرة. ولفظ (القمر) (النجم) 27 مرة. ولفظ ،
النجوم
(13 مرة.

3- تسمية بعض سور القرآن بـ (أسماء فلكية) و (ظواهر كونية) من مثل: (القمر، النجم، الشمس، المعارج، التكوير، الانفطار، المبروج، الانشقاق..).

4- ورود تلك الآيات الداعية إلى النظر في السماء والمتفكر في بنائها المحكم، ومحتوياتها المذهلة، وإلى النظر والتفكر أيضاً في الظواهر الكونية المختلفة: مثل قوله عز شأنه: (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قدام رب أج لهم السم آء فوقهم كي ف بني ن له ا وزي ن له ا وما ل د ا من ف ر و ج

(سورة ق: 6،)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ*الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبَّحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

(آل عمران: 190، 191،)

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

(الغاشية: 17، 18،)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(يونس:)

6. والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً لا يمكن حصرها في مثل هذا المقال الموجيز.

ولما ريب أنه كان لهذه الآيات أبلغ الآثار في نفوس الفلكيين المسلمين، فأقبلوا عليها دارسين وباحثين في دقائقها، غواصين في بحار معانيها، ملتقطين عجائب لآلئها، موجهين الأنظار إلى ما حوته من إعجاز علمي بين.

ولهذا لم يكن عجباً أن يعد كثير من العلماء والباحثين (16)

بحق علم الفلك كله تفسيراً لهذه الآيات القرآنية الكونية وبياناً لما تضمنته من إعجاز علمي شهدت ولا تزال تشهد به الحقائق العلمية التي أذهلت العالم! المهوامش:

(1) انظر (الموسوعة العربية العالمية) 17/482، المعجم العلمي المصور، ص 31، وعد في هذا المعجم أقدم العلوم.

(2) الجوهري: (المصباح) 5/2039.

(3) الزبيدي: (تاج العروس شرح المقاموس) 9/72، أيضاً ابن منظور: (لسان العرب) 12/570.

(4) ابن منظور: (لسان العرب) 12/570، 571.

(5) د. عبد الأمير المؤمن: (مكانة الفلك والتنجيم) ص 49.

6 هذه مصطلحات يعبر بها عن مواقع النجوم التي تحدث وفق خمس تشكيلات رئيسة هي الاقتران أو المقارنة ويسمى الاجتماع إذا كان خاصاً بالشمس بالنسبة إلى القمر.

(والأنظار والاتصالات الأربعة هي: الاستقبال: إذا كان الكوكبان متقابلين على استقامة واحدة. التسديس: إذا كان بينهما ستون درجة من الطول. التربيع إذا كان بينهما تسعون درجة من الطول. التثليث: إذا كان بينهما مائة وعشرون درجة من درجات الطول). د. عبد الأمير المؤمن: (مكانة الفلك والتنجيم) ص 25.

7 حاجي خليفة: (كشف المظنون) 1/22.

(8) الزبيدي: (تاج العروس) 6/83.

9 د. عبد الأمير المؤمن: (مكانة الفلك) ص 285.

(10) أخرجه أحمد في مسنده (1/227) وأبو داود في سننه (3905) وابن ماجه (3726) بإسناد صحيح.

(11) أخرجه مسلم (5821).

(12) أخرجه أبو داود (3904) والترمذي (135) والنسائي (9017) وابن ماجه (639) والحاكم (1/8) بإسناد صحيح.

(13) مجموع الفتاوى 25/200.

(14) مجموع الفتاوى 25/200.

(15) ابن خلدون: (المقدمة) 1/1220، 1221.

(16) من الأقدمين الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب 4/180، ومن المعاصرين د. عبد الأمير المؤمن في كتابه (مكانة الفلك والنتجيم) ص 283.

أهم المصادر والمراجع:

1- (الموسوعة العربية العالمية)، مؤسسة أعمال الموسوعة. الطبعة الثانية 1419هـ/1992م.

2- (في سبيل موسوعة علمية). د. أحمد زكي، بيروت: دار الشروق. الطبعة الثالثة 1402هـ — 1982م.

3- (المعجم العلمي المصور)، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة — بإشراف دائرة المعارف البريطانية، القاهرة: دار المعارف.

4- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (لسان العرب)، بيروت: دار صادر.

5- الجوهري، إسماعيل بن حماد، (المصباح)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. بيروت: دار العلم للملايين.

6- الفيروز آبادي، محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى، (تاج العروس شرح القاموس)، بيروت: دار الفكر، مطبوعة بولاق.

7- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (الفتاوى)، الرياض: دار عالم الكتب 1412هـ.

8 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، «مقدمة العبر وديوان المبتدأ والخبر» تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي. القاهرة: دار نهضة مصر.

9 - ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد (السنن)، الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى.

10 - الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، (المجامع المختصر من السنن)، الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى.

11 - ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (المسند)، بيروت: المكتب الإسلامي.

12 - خليفة، (كشف المظنون عن أسامي الفنون)، بيروت: دار الكتب العلمية.

13 - المحاكم، أبو عبد الله، (المستدرک علی الصحيحين)، بيروت: دار المعرفة، مصورة عن طبعة حيدر آباد المدكن.

14 - المسجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث (السنن)، الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى.

15 - المرازبي، فخر الدين، (التفسير الكبير)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

16 - المؤمن، عبد الأمير، (مكانة الفلك والتنجيم في تراثنا العلمي)، دبي. دار القلم، الطبعة: الأولى 1418هـ/ 1997م.

17 - النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى.

18 - النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى